١٣- باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ} [يونس: ١٠٦] .

وقوله: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧] .

وقوله: {فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: ١٧] .

وقوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٥، ٦] .

وقوله تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢] .

وروي الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- منافقٌ يؤذي المؤمنين. فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من هذا المنافق. فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله" ([1])

فيه مسائل: الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿ولا تدع من دون ا لله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ .

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التى بعدها .

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة .

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

---

[1]) (معجم الطبراني) : (مجمع الزوائد) : (١٠/١٥٩) ، كتاب الأدعية، باب ما يستفتح به الدعاء، و (٨/٤٠) ، كتاب الأدب، باب ما جاء في القيام. (مسند الإمام أحمد) : (٥/٣١٧) . (الطبقات الكبرى) لابن سعد: (١/٣٨٧) مع اختلاف في اللفظ. والحديث عن عبادة بن الصامت.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.
الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.
الخامسة عشرة: أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس.
السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.
السابعة عشرة: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.
الثامنة عشرة: حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله عزوجل.

الشرح :

يذكرُ المؤلف رحمه الله تعالى - أنواعَ وأفرادَ التوحيد الذي يتكلم عليه في كتابه ويذكر ضد ذلك من أفراد الشرك على التفصيل ، وسبق الكلام على الاستعاذة بغير الله وما يتعلق بذاك المبحث ، وهنا يتكلم على أمرين عظيمين الأول هو الاستغاثة بالله سبحانه وتعالى ، والثاني : دعاءُ الربِّ جلَّ وعلا وحده لا شريك له ، فمن مباحث الباب الكلام عن الاستغاثة وما يجوز منها أنْ يكون بالمخلوق وما لا يجوز ، والاستغاثة الشرعية ، والاستغاثة الشركية ، وما هو أعمُّ من الاستغاثة وهو الدعاء .

وهذا البحث مهم ويتعلق به عدة مسائل حيث إنَّ بعضَ قومنا ممن ينتسب إلى الإسلام ابتُلي في هذا الأمر ، فإذا أصابه أمر أو مشكلة أو مصيبة استغاث بالأموات ، أو استغاث بأصحاب القبور أو بأصحاب المقامات ، أو ما يُعرف بالأولياء ، أو استغاث بالجنِّ سواءً كان ذلك عن طريق ساحر يدلُّه على ذلك أو عن طريق إنسان جاهل يدلُّه على ذلك أومعلوماته هو نفسه أدت به إلى ذلك فيستدلون أحيانًا ببعض الأحاديث الموضوعة والتي لا أصل لها والساقطة ؛ منها : « **إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور** » وهي أحاديث يروجها بعض من يريد نشر الشرك في الأمة وطمس التوحيد فيروجون هذه الأحاديث الساقطة ومنها حديث : « **منْ اعتقد في حجر نفعه** » كل هذه أحاديث باطلة ساقطة لا أصل لها ، وغير ذلك كثير وتكلم على شيء منها الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في أول كتاب « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة » ، فلو راجعتها ستعرف عندئذٍ كيف أثرت الأحاديث الموضوعة والتي ـ لا أصل لها ـ تأثيرًا سيئًا سلبيًا فاحشاً على الأمة وعلى كثير من أفرادها ، لذلك من واجبات الدعاة إلى الله جلَّ وعلا أنَّ يبثُّوا العلم الشرعي الصحيح في الأمة ومن هذا العلم الأحاديث الصحيحة ، ويُحاربون الأحاديث الباطلة والمناكير والموضوعات والتي لا أصل لها التي تدمِّر عقائد الأمة وتدمِّر عقائد الشباب والشيوخ .

وهذا ليس شيئًا نقولـه من ذاكرة التاريخ وإنَّما نقولـه من الواقع المؤلم ، ويكفيك في هذا أن تتجول فى بلاد المسلمين لترى هذا الذي نقولـه عيانًا أمامك خاصة عند قبر البدوي وعند قبر الحسين وعند ما يعرف بقبر بالسيدة زينب والسيدة نفسية والمرسي أبي العباس والدسوقي ونحو ذلك . ترى عنده النذر لغير الله ، والذبح لغير الله ، والاستغاثة بغير الله . ترى هذه الأمور واضحة للعيان ، عندئذٍ سيعرف الطالب أهمية هذا الكتاب الذي نتكلم فيه عن تصحيح التوحيد وتصحيح العقيدة ، من هنا كانت أهمية هذا الباب الذي معنا ، بابٌ {من الشرك أن يستغيث بغير الله }

(من) هنا تبعيضية .

لأنَّه في كل باب يتكلم عن نوع من أنواع الشرك وعن أحد أفراد الشرك.

قولـه: [من الشرك] أي من الشرك الأكبر أنْ يستغيثَ بغيرِ الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

سؤال : متى تكون الاستغاثة بغير الله شركًا أكبر ؟

الجواب : إذا استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده فقد وقع في الشرك الأكبر والعياذ بالله تعالى ، من هنا نُقسِّم الاستغاثة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : استغاثة شرعية أمرنا بها وجاء بها الشرع .

القسم الثاني : استغاثة شركية .

القسم الثالث : استغاثة جائزة .

القسم الأول : وهو الاستغاثة الشرعية بأنْ تستغيث بالله وتطلب الغوث منه وحده سبحانه وتعالى و أن يكون توجهك وطلبك للواحد الأحد الذي بيده مقاليد الأمور فتستغيث به وحده سبحانه وتعالى .

القسم الثاني : الاستغاثة الشركية - وهي عكس الاستغاثة الشرعية -: وهي أن تستغيث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، كأن تطلب من مخلوق ما إنزال المطر ، ولا يوجد مخلوق يقدر على إنزال المطر ، و كأن تطلب من ميت أو من حي أن يعطيك ولداً ذَكَرًا بدلاً من أنثى ، أو أنثى بدلاً من الذكر ، ولا يستطيع أحد أن يقلب ويحول ما في الأرحام ، وقس على ذلك الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله جل وعلا إذا طلبتها من العبد أو من مخلوق سواءً كان هذا المخلوق حياً أو ميتاً ، حاضراً أم غائباً ، إذا طلبتها منه فهذا من الشرك الأكبر الذي يجعل صاحبه مخلدًا في النار ويحبط أعماله كلها حتى لو كانت كالجبال من الحسنات والأعمال الصالحة ، وهذا معناه أنَّ الإنسان الذي يخاف على عمله وعلى نفسه لابد أن يَتعلَّم كيف ينجو بنفسه وبتوحيده وبعمله ويخاف عليه من البطلان .

القسم الثالث : وهي الاستغاثة الجائزة ، وهي أن تستغيث بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق الحي الحاضر القادر ، يستغاث بالحي الحاضر القادر

على الإغاثة ، فمن الممكن إذا وقع الشخص في مشكلة أو في مأزق أن يقول : يا فلان أغثني كأن يكون هناك حريق في البيت فتستغيث بالجار لكي يغيثك بإطفاء الحريق ، أو رجل مثلاً غرق فيستغيث بمن يمشي على الشاطئ فيقول يا فلان : أغثني وأنقذني من الغرق ، فهذه الاستغاثة جائزة إذا كانت استغاثتك بمن هو حي حاضر قادر ، ولو فقدنا أحد هذه الشروط حرمت فإذا استغاث بالغائبين من الجنِّ فهذه استغاثة شركية ، وإذا استغاث بميت فهذه فقدت الشروط لأنَّ الميت ليس بحاضر ، وليس بقادر ، وليس بحي . و إذا استغاث الإنسان بحي حاضر لكنه غير قادر كأن يكون إنسان وقع في يد ظالم قاهر فيستغيث بطفل يقول : يا فلان أغثني ، أو يستغيث بإنسان ضعيف أو بمقهور مثله ، يقول : يا فلان أغثني ، فهذه الاستغاثة لا نقول أنها شركية ، ولكن نقول إنها لغوٌ لا فائدة منها إلا إذا اشتملت على اعتقاد خفي كأن يعتقد مثلاً أنَّ هذا الطفل ابن فلان الفلاني من سلسلة خلفاء الصوفية الذين يأخذون الخلافة ويتسلمونها كابراً عن كابر، ويظن أنَّ هذا الطفل مع صغره وضعفه عنده سرٌ خفي يستطيع به أن يغيثه وأن ينقذه فهنا تنقلب من الاستغاثة التي لا فائدة منها إلى الاستغاثة الشركية من أجل هذا الاعتقاد إذا وجد ، لأنَّه قد يوجد هذا الاعتقاد في بعض الدول وعند بعض الناس .

ولابد أن نعرف أنَّ أمور الدنيا لها أحكام ولا تقاس على أمور الآخرة ، ولا تقاس على الغيْبيات ونقول ذلك ؛ لأن بعض الناس إذا سمع أهل العلم يقولون : لا يجوز أن تستغيث بالأموات أو تستغيث برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، أو أن تذهب عند قبره وتقول : يا رسول الله أغثني لأن هذا من الشرك ، فيقول معترضاً : فكيف تقولون إنَّ هذا من الشرك وقد ثبت أنَّ الناس يوم القيامة يأتون يستغيثون برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ليكشف عنهم ما نزل بهم من طول المقام في انتظار الحساب ، فيغيثهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ويذهب لربه جل وعلا يشفع لهم في فصل القضاء ويقول : أنا لها ، أنا لها ؟

فالجواب هو:

أولاً : أمور الدنيا لا تقاس علي أمور الآخرة .

ثانيًا : يوم القيامة يكون النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم حياً ، فكل الناس يبعثون من قبورهم فيكونون أحياء ، وربنا جلَّ وعلا يأذن له عندئذٍ في هذه الشفاعة ، وهذا الكلام الذي يقوله بعض الملبسين يُلبِّسون به وهو يكثر في المجلات وفي مقالات وكتب أهل البدع ككتاب المالكي (مفاهيم يجب أن تصحح)، و كتاب اسمه « خدعوك فقالوا » وهذا الكتاب

من أخبث الكتب ، فإنه يأتي بالحقائق ويقلبُها ويجعلها من المخادعات التي يخادع بها أهل السنة الناس.
وكتاب « مفاهيم يجب أن تُصحَّح » من أخبث كتب الصوفية وقد جمع شبهات أهل البدع في الشرك وفي توحيد العبادة ، وهذا الكتاب ولله الحمد رد عليه أهل السنة في عدة كتب ، فقد رد عليه شيخنا الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله تعالى - في كتابه « هذه مفاهيمنا » وهو كتاب جيد لا يستغني عنه طالب العلم ، وأيضًا رد عليه الشيخ عبد الله بن منيع في كتابه « حوار مع المالكي »
ومن الكتب المهمة جدًا لطالب العلم في الرد على شبهات أهل البدع المتعلقة بشرك القبور والأضرحة والأموات والتي لابد لطالب العلم منها كسلاح بين يديه كتابان عظيمان الأول :
« صيانة الإنسان من وسوسة الشيخ دحلان » و دحلان هذا كان مفتي الشافعية في مكة كتب كتابًا هاجم فيه دعوة التوحيد وأتى بشبهات كثيرة فردَّ عليه عالم من بلاد الهند اسمه الشيخ بشير السهسواني من المحدّثين ، وهذا الكتاب فيه فوائد أصولية وفوائد حديثية ولُغوية فضلاً عن الفوائد العقدية ، ثانياً : الكتاب الثاني الذي اعتنى برد شبهات هؤلاء القبوريين كتاب « غاية الأماني في الرد على النبهاني » والنبهاني هومصري « وغاية الأماني » للألوسي العراقي وهو رجل سلفي ، وهذا الكتاب مهم جدًا لطالب العلم .
قوله : (بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله)
[من] الجارة . **{الشرك}** : اسم مجرور بـ (من) والجار والمجرور في محل رفع خبر مقدم ، **{أن يستغيث}** : {أن} والفعل بعدها مصدر مؤول في محل رفع مبتدأ مؤخر ، أصل الكلام : الاستغاثة بغير الله من الشرك .
{أن يستغيث} : الاستغاثة هي طلب الغوث مخافة الوقوع في الضرر والشدة أو بعد الوقوع في الشدة ، وبعض أهل العلم فرَّق بين الاستغاثة والاستعاذة فجعل هناك فرقًا لطيفًا ، قال : الاستعاذة طلب العوذ مما تخاف أن يقع مما تحاذره ، أما الاستغاثة فهي طلب الغوث من مكروه وقع أو ضرر أو مضرة وقعت .
قوله : (أو يدعو غيره) الدعاء أَعمّ من الاستغاثة فأنت تدعو الله جل وعلا بدفع الضر الذي وقع ، أو تدعو الله جل وعلا في أن يُعِيذَك من شرٍ تخاف منه ، أو تدعو الله جلَّ وعلا في طلب رزق ، أو تدعو الله جل وعلا في أن يتوب عليك وغير ذلك ، فالدعاء أعم من الاستغاثة ، وهذا من باب عطف العام على الخاص لأنَّ الدعاء أعم من الاستغاثة ، الاستغاثة مُقيدة إذا وقع بك ضرر ، أمَّا الدعاء فهو أعم .
الدليل الأول :

• **وقول الله تعالى : { وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ (١٠٧) } [يونس] .**

بدأ المؤلف في ذكر الأدلة على أنَّ الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وأنَّ دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر ، وهو يترك ذكر الحكم أحياناً لتعليم الطالب كيفية استنباط الحكم من الأدلة التي يأتي بها ، من هذه الأدلة قول الرب جلَّ وعلا في سورة يونس : { وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ }.

{ولا تدع} : **[لا]** هنا ناهية ، **{تدعُ}** ، الخطاب ابتداءً هو للنبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، « وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ » ، وهل يُتصور أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم الذي أتى بالتوحيد الخالص ودعا إلى التوحيد يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره ؟!!

الجواب : لا يتصور هذا في حال النبوة والرسالة ، ولكنَّ الخطاب له صلى الله عليه وسلم ونحن له فيه تبع ، فنحن مأمورون أن لا ندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا .

« وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ » : لو قال قائل أنا لا أدعو من دون الله ولكن أدعو مع الله .

نقول : هذا أيضًا مقصود ، لا تدع من دون الله استقلالاً ولا تدع مع الله ما لا ينفعك ولا يضرك.

قوله : (مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ) ، لو قال قائل : أنا سأدعو من دون الله ما ينفعني بناءً على أنَّه جاء في الآية : « وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ » فهل هنا مفهوم المخالفة معتبر ؟ بمعنى أن تدعو من دون الله الذي ينفعك أو يدفع عنك الضر ؟

الجواب : لا ، هذا القيد لبيان الواقع أو صفة كاشفة فكل من تدعوه من دون الله فهو لا ينفعك ولا يضرك وإن اعتقدت أنت أنه ينفع ويضر ، مثل قوله تعالى :{ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ } [المؤمنون : ١١٧] فمن قال : سأعبد وأدعو من عليه برهان ، نقول : هذا لبيان الواقع فأي إله ستدعوه من دون الله فإنَّه باطل ولا برهان لك به ، وهذا يسمونه صفة كاشفة أو بيان للواقع ، فهو قيد يُبين الواقع ، والواقع أنَّه مهما دعوت من دون الله من آلهة فإن برهانه باطل ولا دليل عليه .

« فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ »:

قوله: (فَإِن فَعَلْتَ): والنبي صلى الله عليه وسلم لا يفعل ذلك ، **« فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ »:** هذا جواب الشرط ، والظالمون هنا هم المشركون الكافرون ، فالظلم هنا الشرك كما في قوله : { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }

[لقمان :١٣] إذاً لو فعل هذا النبي صلى الله عليه وسلم لكان من الظالمين أي من المشركين ، بل لو فعل هذا الأنبياء كلهم وحاشاهم لكانوا من المشركين { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الزمر :٦٥]

قوله: (فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين) والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، فكان الشرك ظلمًا لأن العبد وضع العبادة في غير موضعها ، وصرف العبادة لغير الله فمن صرف العبادة لغير الله فقد أتى بالشرك الأكبر الصريح .

قوله :« وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ »

الدعاء قسمان : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة .

القسم الأول : دعاء المسألة أن تقول : يا رب ارزقني ، يا رب أعطني ، يا رب أدخلني الجنة ، ونحو ذلك فهذا دعاء المسألة .

القسم الثاني : دعاء العبادة ، مثاله أن تعمل العبادة كأن تصلي و تقرأ القرآن ، تذكر الرحمن ، فتفعل كل هذا و لسان حالك أنك سائل داع ، تقول : يا رب ذكرتك فأعطني وأجرني ، واخلف علي ، وأعطني الحسنات والدرجات العلا . فأنت ذاكر تقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ، وفي الوقت نفسه أنت داع لأنك قصدت أن تذكر الله جلَّ وعلا وتطلب ما عنده من النوال والعطاء والأجر والثواب ، فأنت ذاكر داع سائل طالبٌ ؛ فحقيقة أمرك أنك طالبٌ ما عند الله سبحانه وتعالى ، إذاً المصلي طالب ما عند الله ، وقارئ القرآن طالب ما عند الله جل وعلا ، والذاكر طالب ما عند الله وقس على هذا ، فهذا يسمى بدعاء العبادة ، أي تتعبد وحقيقة أمرك أنك تدعو وتسأل .

يقول أهل العلم بأنَّ دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ودعاء العبادة مستلزم للمسألة ، دعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة ؛ لأنَّك عندما تسأل ربك وتطلب منه فهذا الطلب عبادة لذلك لا يجوز أن تصرف هذا الطلب ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله ـ لغيره فإذا صرفته لغيره كنت مشركًا ، فأنت حين تسأل تقول : يا رب أعطني ، يا رب ارزقني ، يا رب أدخلني الجنة هذا الطلب نفسه عبادة ، هذا معنى قولهم : دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة .

ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ، أنت تصلي ، وتقرأ القرآن وتذكر الله ، لسان حالك يقول : يا رب قرأت القرآن وقمت الليل وصُمْتُ فأعطني .

قوله : { وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ } .

(الضر) : سواء كان هذا الضر في الدين أم في الدنيا ، كأن يُبتلى الإنسان في دينه والعياذ بالله بارتكاب المعصية أو الفسق أو نحو ذلك ، وفي الدنيا كأن يبتلى بنقص المال أو بالمرض أو بالفاقة ونحو ذلك ، لكن من المسائل

المهمة في هذه الكلمة أن تعرف وتوقن أنَّ الشر ليس إلى الله جلَّ وعلا وأنَّ الله جل وعلا أفعاله كلها خير ، وإنما يأتي الضر في المخلوقات والمفعولات ، وأنَّ هذا الأمر نسبي فقد يكون ضرراً في أمرٍ معين بالنسبة لك لشعورك وإحساسك وما ترتب عليه ، لكن هو خيرٌ بالنسبة لغيرك سواءٌ كنت تعلم أين هذا الخير أم لا تعلم ، فربّنا جلَّ وعلا أفعاله كلها خير ليس في أفعاله شر ، أَنما يقع الشر في المخلوقات وفي المفعولات ، والشرُّ الواقع في المخلوقات أمر نسبي .

وقد جاء في الحديث : « **والشر ليس إليك** » ([1])فلا ينسب الشر لأفعاله جلا وعلا بل أفعاله كلها خير وهي لحكمة بالغة سواءً علمناها أم لم نعملها ، { وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ } .

قولـه : « وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَـهُ إِلاَّ هُوَ »: [لا]: نافية للجنس ، **(كَاشِفَ):** اسمها ، **(لَهُ):** خبرُها.

فالشاهد من هذه الآية : **« فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ »:** أي أنَّ الإنسان عليه أن لا يستغيث إلا بالله ولا يدعو إلا الله جلَّ وعلا ، حسب التقسيم والقيد الذي ذكرناه .

قولـه :{وَإِن يُـرِدْكَ بِخَيْـرٍ فَـلاَ رَآدَّ لِفَضْـلِهِ } وفـي آيـة الأنعـام : **{ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَـهُ إِلاَّ هُوَ } [الأنعام :١٧]** ، وانظر هنا إلى قولـه :**(يَمْسَسْكَ):** المس هو الشيء اليسير ، إن يمسسك الله بضر فلا يستطيع أحد ولو اجتمع أهل الأرض كلهم أن يكشفوا هذا الضر ولو كان يسيرًا إلا أن يشاء الله جل وعلا ، **{ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ } :** لا يستطيع أحد أن يرد فضل الله جل وعلا .

قولـه: « يُصيبُ بِـهِ » فالضمير إما أن يعود على الخير أو يعود على الفضل ، { يُصيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } هناك قاعدة يذكرها أهل العلم في هذا الموطن : أنَّ كل فعل مقيد بمشيئة الله جلَّ وعلا فإنَّه مقيد بالحكمة .

و أهل السنَّة يثبتون الحكمة في أفعال الله جل وعلا ، خلافاً للأشاعرة حيث إنَّ الأشاعرة ومن مشى في دربهم ينفون الحكمة والعلة في أفعال الله جلَّ وعلا ويسمونها أغراضاً ويقولون : هو منزه عن الأغراض . وهذه من الكلمات الساقطة الباطلة التي أُريد بها تعطيل الصفات ، فالرب جلَّ وعلا جميع أفعاله لحكمة ، ليس هناك فعل من أفعاله يخلو عن الحكمة البالغة ، فأفعاله جلَّ وعلا في غاية الحكمة وهي مبنية على غاية الرحمة .

{ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } وكلمة العباد هنا المقصود بها العبودية العامة ؛ لأنَّ الكافر يرزق بالمال ويرزق بالصحة

---

[1]) رواه مسلم برقم ٢٠١ – (٧٧١) .

والعافيـة والطعـام والشـراب ونحـو ذلـك ، فيـدخل فـي هـذا جميـع الخلـق ، فالمقصود بالعبودية هنا العبودية العامة .

قولـه :{ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } والغَفْر : هو الستر والتغطية ، الغفور الذي يستر الذنب مع التجاوز عنه ، فليس فقط مجرد ستر الذنب بل ستر الذنب مع تجاوز الربّ بكرمه عن الذنب.

الدليل الثاني :

• **وقوله: { فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ } [العنكبوت :١٧] .**

قول الله جل وعلا : { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت :١٧] أتى بهذه الآية هنا في باب الاستغاثة ؛ لأنَّ استغاثة الناس ودعاءَهم أكثر ما تكون لطلب الرزق ، فقال لهم : « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » ، هؤلاء الذين تعبدونهم وتدعونهم من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ،إذاً فمن أين نطلب الرزق ؟ قال : « فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ » فبَيَّن جلَّ وعلا أن الرزق يُبتغى من الله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) } [الذاريات] ، فالرزق يُستجلب بالطاعة والعبادة ، وهذه القاعدة مهمة : ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى : { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٣) } [الطلاق] والمعاصي وارتكاب المحرَّمات من أكبر أسباب منع الرزق أو منع البركة في الرزق ، وقد جاء في ذلك حديث وهو: « **إنَّ العبدَ ليحرم الرزق بالذنب يُصيبه** » هذا الحديث فيه ضعف رواه أحمد وابن ماجة وابن حبان والحاكم ([1]).

وقوله :« لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ » أصلها : فابتغوا الرزق عند الله ، لكن قَدَّم هنا ما حقه التأخير من أجل الاختصاص ، اختصاص الجهة : توحيدها أي : يُوحد جهة طلب الرزق فلا تكون إلا من الله وحده سبحانه وتعالى .

قوله : « وَاعْبُدُوهُ » : فطلب الرزق بتحقيق العبادة لله تعالى ، أي أن الإنسان إذا أراد أن يُرزق رزقًا واسعًا طيبًا مباركًا فيه عليه أن يحقق العبادة لأنَّ الله يقول : { فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ } ويدل على ذلك قوله :{ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٣) } .

قوله : « وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ » : [اللام] في **(وَاشْكُرُوا لَهُ)** : تدل على الإخلاص ،أي : شكرًا أجعله لله ، والشكرُ يكون بالقلب واللسان والجوارح ، فالاعتراف بالقلب بأنَّ هذه النعم من الله جلا وعلا ، وباللسان

---

[1]) رواه أحمد في المسند برقم (٢٢٤١٣) وابن ماجة برقم (٤٠٢٢).

هوالثناء على مُسديها و من أعطاها لك ، وبالجوارح أن تستعملها في طاعته ، **قال الشاعر :**

أفـــادتكم النعـــماء منـــي ثلاثـة: * يـــدي ولسانـــي والضمـــير المحجبا.

فالشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح .

وقولـه : « وَاعْبُـدُوهُ » يتضـمن التنبيـه علـى الـدعاء سـواءً كـان دعـاء المسألة أو دعاء العبادة وكلاهما في القرآن .

الدليل الثالث :

وهـو قـول الله جـل وعـلا **:{ وَمَـنْ أَضَـلُّ مِمَّـن يَـدْعُو مِـن دُونِ اللَّهِ مَـن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ } [الأحقاف :٥]**

قولـه :(وَمَنْ أَضَلُّ): أي لا أحد أضل ، وهذا الاستفهام يُراد بـه النفـي ، استفهام إنكاري أي لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب لـه إلى يوم القيامـة ، فمـن يذهب إلـى قبـر الحُسين ويقول أعطنـي وارزقنـي ، أريد ولداً ، أريد زوجـةً ، رجـع غـائبي فيظل يدعو شـهوراً وسنينًا ولـو ظل آلاف السنين فإن الميت لا يستجيب له ، لأنَّ الميت يحتاج إلى من يدعو لـه ، الميت لا يملك لنفسه شيئًا فضلاً على أن يملك لغيره ، لذلك وصـف سبحانه وتعالى المدعوين بأربعة أوصاف :

أولاً: أنهم لا يستجيبون لداعيهم .

ثانيًا : هم غافلون عن دعاء هذا الداعي ، فهو يدعو الحسين أو البدوي ، والبدوي ما يدري عنـه شيئًا ولا يدري مكانـه ولا كلامـه ولا مـاذا يقول ، إذ هو غافل عن دعائه.

ثالثًا : يوم القيامة يكون هذا المدعو عدوًا للذي يدعوه ويُشرك بـه ، فيقول المدعو : يا رب أنْا مـا أمرتـه بهذا ولا طلبت منـه هذا ، كمـا قـال تعـالى : { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } [الأحقاف :٦] .

رابعًا : أنهم يتبرؤون مِن عبادتهم لقولـه :« وَكَـانُوا بِعِبَـادَتِهِمْ كَـافِرِينَ » ، ويقولون :**(ما كانوا إيانا يعبدون)** ويقولون **(بل كـانوا يعبـدون الجـن)** ، و أحياناً قد يدخل الجن في بعض القبور والمشاهد ؛ ليضل الداعين لها فإذا دعا الشخص من الممكن أن يسمع كلامًا من داخل القبـة أو داخل القبر فيكون الـذي يُكَلِّمـه جنـي يخادعـه ويريـد إضـلاله ، يقـول : الشـيخ سـمع كلامـك وسيحقق طلبك ، وقد يكون في القدر أن هذا الشخص سيحصل له هذا الأمر الذي دعا به عند القبر من بـاب الابتلاء والاختبـار ، فيظن أنَّـه دعـا صـاحب القبر فأجابـه ، وهـذا يقـع ابتلاءً وامتحانًـا واختبـارًا وإلا فـإنَّ أصـحاب القبـور غافلون عنهم ويتبرءون منهم يوم القيامة ولا يستجيبون لهم كما قال تعالى :

« وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » ، هذه أربعة أوصاف للمدعوين مذكورة في هذه الآية الكريمة .

ومن الفوائد في قوله تعالى : **« وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »** فذكر في أول الآية الدعاء **:{ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو }** ثم ذكر في آخر الآية أنَّ هذا الدعاء عبادة ، فدلَّ هذا على أنَّ الدعاء عبادة وقد جاء ذلك في حديث النعمان بن بشير الصحيح الصريح الذي رواه الترمذي ([1]): **« الدعاء هو العبادة »** إذًا من فوائد هذه الآية الكريمة : إطلاق العبادة على الدعاء وأنَّ الدعاء من العبادة وأنه من أعظم العبادات .

نستفيد من هذه الجملة : أنَّ صرف الدعاء لغير الله شركٌ أكبر على ما ذكرناه في أول الباب ، وهذا محل الشاهد في هذا الباب .

الدليل الرابع :

- **وقوله : { أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل :٦٢]**

.

قوله تعالى : { أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } [النمل :٦٢] هذا استفهام إنكاري يُفيد النفي ، فلا أحد مع الله يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، والشاهد هنا في مسألة الاستغاثة قوله : « وَيَكْشِفُ السُّوءَ » .

الدليل الخامس :

- **وروى الطبراني بإسناده : أنَّه كانَ في زمنِ النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنَّه لا يُستغاثُ بي ، وإنَّما يُستغاث بالله » .**

قال : { ورواه الطبراني بإسناده }([2]) .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد بلفظ (إنه لا يقام لي ولكن يقام لله) وهو غير موجود بلفظ المتن في معاجم الطبراني الموجودة الآن ، وربما يكون في الجزء المفقود من المعجم الكبير للطبراني ، وذكر هذا الحديث الهيثمي في المجمع وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة ، وابن لهيعة القاضي المصري المعروف الذي اختلط بعد احتراق كتبه وحاله مشهور عند أهل العلم ، والإمام أحمد ومعه بعض الأئمة يُمشُّون حديثه ، وابن مَعين وغيره يضَعِّفُونه ، والذهبي يقول بضعفه ، والحافظ ابن حجر

---

[1]) رواه الترمذي برقم (٣٣٧٢) .

[2]) (معجم الطبراني) : (مجمع الزوائد) : (١٥٩/١٠) ، كتاب الأدعية، باب ما يستفتح به الدعاء، و (٤٠/٨) ، كتاب الأدب، باب ما جاء في القيام. (مسند الإمام أحمد) : (٣١٧/٥) . (الطبقات الكبرى) لابن سعد: (٣٨٧/١) مع اختلاف في اللفظ. والحديث عن عبادة بن الصامت.

يقول : إنه صدوق مختلط ، وبعض المحدثين يمشي حديثه إذا كان من رواية عبد الله بن وهب أو عبد الله بن يزيد المصري أوابن المبارك.

لكن الإسناد الذي رواه الإمام أحمد فيه أيضًا رجل لم يسم ، فيُتوقف الاستشهاد بهذا الحديث على الوقوف على إسناده في كتاب الطبراني .

ولكنني أخيرًا وجدت بعض الناس عزا هذا الحديث ونقل إسناده من كتاب « جامع المسانيد والسنن » لابن كثير وهذا هو الإسناد ـ أعني إسناد الطبراني في المعجم الكبير ـ كما نقله عنه ابن كثير في « جامع المسانيد والسنن »

قال : حدثنا أحمد بن حمَّاد المصري معروف بزغبه قال : حدثنا سعيد ابن كثير بن عُفير قال : حدثنا ابن لهيعه عن الحارث بن يزيد عن عُلي بن رباح عن عبادة بن الصامت الحديث .

قال عن هذا الإسناد الهيثمي في « مجمع الزوائد » : رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة . اهـ

وهذ الحديث أقل أحواله أنه حسن .

قال : {أنَّه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم} ، لم يذكر هنا الصحابي ، وقد جاء في « المسند » أن هذا الحديث عن عُبادة بن الصامت ، أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق ، وجاء أيضاً في روايات في « الحلية » وفي « طبقات ابن سعد » : { أن هذا المنافق هو عبد الله بن أبي بن سلول كان يؤذي المؤمنين } ، وورد عن ابن كثير وابن أبي حاتم : **{أنَّه كان يقول للمؤمنين : جاء عيسى بآية المائدة ، وجاء موسى بآية العصا وكذا وكذا فقولوا لصاحبكم يأتينا بآية من الآيات التي جاء بها الأنبياء}** .

هذا كان وجه الإيذاء للمؤمنين ، (**فقال بعضهم**) : الذي قال هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه (**قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم من هذا المنافق**) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **« إنَّه لا يستغاث بي ، وإنما يُستغاث بالله »** .

أهل العلم ذكروا أنَّ هذه العبارة أُريد بها إرشاد الصحابة إلى الأدب في التعامل ، وأنَّه ينبغي للعبد أن يتوجه أولاً بطلب الاستغاثة من الله جلَّ وعلا وإلا فإنَّهم قد طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يُغيثهم في أمرٍ يقدر عليه وهو أن يعزر هذا المنافق أو يُكلِّم هذا المنافق أو يعاقبه بأي طريقة كانت ، فهذا مما يقدر عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، لكن دلَّهم هنا على الأكمل والأفضل وأنَّه ينبغي أن يتوجهوا بهذا الطلب للهِ جلَّ وعلا .

هذا على القول بتصحيح هذا الحديث أو بصحته ، وقد يُوضع في هذا الموطن الحديث الذي رواه الترمذي قد يصلح دليلاً على هذا الباب : **« يا**

حي يا قيوم برحمتك أستغيث » ([1])كان هذا من دعاء النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، فيصلُح أن يضم هذا الحديث لشواهد هذا الباب .

وهذه المسائل واضحة وسبق الكلام عليها .

[1]) رواه الترمذي برقم (٣٥٢٤) .